محادثة من الطبقة الوسطى

لقاؤنا الأول والأخير كان فى الساحة.

- " تلعب يا كابتن؟ "

مرَّرْتُ له الكرة. كعادة غالبية المصريين الولد يبدي مهارات لا بأس بها. ها هي الكرة كعهدنا بها تمارس فِعلها الجميل في امتصاص متاعب وشواغل المصريين كإسفنجة سحرية. تصافحنا. لم أكن تواقاً للتعارف فاكتفيتُ بابتسامة صغيرة.

- " أنا اسمى عمرو. لقد خرجتُ لتوي من السجن ".

قسمات وجهه تبدو أصغر من ارتياد هذا المكان المأفون. أنا أمزح بالطبع. لمن لا يعرف ما يعنيه بالسجن هو المعهد الفني المجاور لنا. ثياب العمل الرسمية هي بذلات زرقاء تماماً كثياب المحكوم عليهم، ولذلك يشير إليه سكان الحي باعتباره "السجن". وحيث إنه يقع في الدرك الأسفل من السلم التعليمي في البلاد، ويضم أعتى المشاغبين من حملة الأسلحة البيضاء والملونة، فإنه ليست هناك كلمة أكثر إيجازاً لوصف هذا المكان من السجن.

" الأوغاد. بدلاً من تعليمنا شيئاً مفيداً فإنهم يستغلوننا في أعمال التنظيف طوال النهار".

هكذا إذن. لا يدهشني أن تخرج إحصائيتان عن وزارة التعليم، تقرُّ في الأولى أن تكلفة بناء مدرسة تعليم فني تفوق نظيرتها العادية بخمس مرات، وتعترف في الثانية بأن سبعة وخمسين بالمائة من خريجي التعليم الفني لا يجيدون القراءة والكتابة، وهي نسبة دالة على نوع مدخلات سوق العمل في البلاد، ومخرجاته أيضًا.

"هل تعلم؟ أنا أجيد صنعتين. تعلمت الألوميتال في المدرسة، وأتقنت الصاج في وقت فراغي. أعمل في ورشة حدادة بعد الظهر. أتمنى السفر إلى السعودية. ما رأيك؟"

دائماً ما يصل الحديث بين أي شابين مصريين إلى هذه النقطة، السفر لبلاد الشرق التي تفيض سمناً وعسلاً. أكره أن أكون تاجر التعاسة هنا، ولكن لي تحفظاتي الجدية على هذا الموضوع. أدري أنني أحد الطيور المهاجرة، ولكن اقترابي من هذا الأمر يتبع سياسة دول أمريكا اللاتينية تجاه المخدرات: تعاطيها حلال والاتجار فيها محرم.

خذ مثلاً تجربتي المتواضعة. رحلة السفر تبدأ باستيفاء الأوراق اللازمة لاستخراج تأشيرة السعودية، وهو

طريق طويل يبدأ من مصلحة الجوازات والهجرة، ويمر بوزارة الخارجية، وينتهي بالسفارة السعودية، وهناك يتبين أنه لا بد من إعادة الإجراءات لتعديل بند المهنة، حيث تخصص السعودية أعداداً محددة من التأشيرات لكل مسمى وظيفي. تعديل المهنة في جواز السفر يتطلب تعديل بيانات بطاقة الرقم القومي، وهذا بدوره يتطلب استيفاء أوراق النقابة، لتعيد الكرة من النهاية إلى البداية.

استخراج التأشيرة يتطلب أيضاً تقديم شهادات صحية تثبت خلوك من أمراض الصدر والدم والكبد والالتهاب الفيروسي، الأمر الذي يتطلب توقيع الكشف الطبي. نصف إجراءات الكشف الطبي تتم في مستشفى القاهرة التخصصي، ونصفها الآخر في معامل وزارة الصحة المركزية بشارع الشيخ ريحان المواجه لمقر الجامعة الأمريكية. أضف إلى ذلك يوماً آخر لاستلام نتيجة التحاليل، فيكون المجموع ثلاثة أيام غير متعاقبة من السفر إلى القاهرة ذهاباً وإياباً. تشاء المقادير أن أتوجه إلى القاهرة فى رحلة أتوبيس السهم الذهبي التي تقلع فجراً، ليتوقف الأتوبيس قرابة الساعة على مدخل طريق الإسكندرية – القاهرة الصحراوي، قبل أن يعود أدراجه إلى الإسكندرية؛ لأن شرطة المرور – نتيجةً لحادث تصادم مروع تحطمت على إثره عشرون سيارة بفعل الضباب – قررت إغلاق الطريق البري الوحيد الذي يربط العاصمتين.

نعود إلى الإسكندرية بحلول السابعة إلا الربع صباحاً، لننطلق لاهثين لإدراك قطار السابعة المتوجه إلى القاهرة. وبعد جهد جهيد – لاسيما من أولئك المثقلين بالحقائب والأمتعة من الذين كانوا يعتزمون التوجه إلى مطار القاهرة – نستقل القطار. وحيث إننا لم نقم بحجز مسبق، فإنه يتعين علينا إمضاء الرحلة وقوفاً طوال ثلاث ساعات هي مدة الرحلة التي كانت تستغرق ساعتين ونصف الساعة قبل التدهور الحاصل فى قطاع النقل. نصل إلى القاهرة – وقد تخدرت أقدامنا – لأستقل عربة أجرة من ميدان رمسيس بعد نصف ساعة من التدافع متوجهاً إلى ميدان التحرير. ألاحظ أن حركة المرور فى الميدان شبه مستحيلة نظراً للتواجد الأمني المكثف من قِبَل قوات الحرس الجمهورى والأمن المركزى. حينها – وحينها فقط – أتذكر أن الرئيس متوجه اليوم إلى مجلس الشعب لافتتاح الدورة البرلمانية الجديدة. وتواتيني رغبة عارمة في صفع نفسي بالحذاء عدة مرات على مغادرتي المنزل في هذا اليوم بالذات.

بمشقة بالغة وبعد عدة مرات من التفتيش أتمكن من عبور الميدان إلى الجهة المقابلة متوجهاً إلى وزارة الصحة، وهناك أجد آخر المفاجآت السارة بأنه – ونظراً لاعتبارات الأمن – فقد تقرر منح جميع العاملين بالوزارات والمصالح المطلة على الميدان إجازة لهذا اليوم، وعليه، فإنه لاستلام قصاصة ورقية صغيرة تحوي نتيجة الكشف الطبي يتوجب على جميع القادمين من أقصى الأرض – من الإسكندرية إلى أسوان –

القدوم في يوم آخر.

بانتهاء إجراءات استخراج التأشيرة تتبقى إجراءات استخراج تصريح العمل وتصريح القوات المسلحة. تصريح العمل يتطلب فى المتوسط رحلتين إلى المصلحة التابعة لوزارة القوى العاملة والهجرة. هذا ما لم يكن اسمك مدرجاً على قوائم المطلوبين، أو متشابهاً مع أحد المدرجين، وحينها تستدعيك مباحث أمن الدولة للتحقيق. استخراج تصريح القوات المسلحة يبدأ بالتوجه إلى قسم الشرطة التابع لمحل الإقامة، حيث تستلم ورقة تفيد سلامة موقفك التجنيدي. ختم الورقة بخاتم النسر إجراء حصري على الضابط المسؤول عن مكتب التجنيد، والضابط المذكور قد يتواجد فى أي من أربعة أقسام شرطة على مستوى المحافظة، وبعد الظفر بخاتمه العزيز يتبقى التوجه إلى منطقة التجنيد بالعامرية على مشارف الإسكندرية، حيث تنتظر قرابة الساعتين لاستلام تصريح السفر. كل هذا العناء كي تطأ أقدامك الأراضي السعودية، لتضع نفسك في النهاية تحت طائلة نظام كفالة غير معمول به في أي دولة على وجه البسيطة، وتشير إليه الأمم المتحدة باعتباره نظاماً عبودياً، يتيح لصاحب العمل الحق في استلاب وثيقة سفرك وحجبها عنك تحت أوهى ذريعة.

"الحياة أصبحت صعبة. تخيل، توجهت هذا الصباح إلى المخبز لشراء نصف كيلو من الكحك. عشرة جنيهات!! منذ ثلاثة أيام مضت كانت بخمسة. أبي يعمل مفتشاً للتموين. يقبض أربعمائة جنيه في الشهر. ينفق نصفهم ويجهز أختي بالنصف الباقى. وأنا أعمل سائقاً – بدون رخصة – على عربات الأجرة الجماعية في سيدى بشر. أدفع لصاحب المشروع مائة وسبعين جنيهاً يومياً، وأتحصل على الباقى".

نظرَ ملياً إلى يدي، ولاحظَ أنها – مثل يده – خالية من أى شيء فِضّى. دونما كثيرٍ من الذكاء توقعتُ سؤاله التالي:

" تفتكر هنتجوز إمتى؟ "

هززتُ كتفى. وتصافحنا.

لم أره منذئذ. ولكن صورته تتراءى لي في كل الوجوه.